تصميمات النسق المفرد

سامي عبد العزيز الدامغ
قسم الدراسات الاجتماعية - جامعة الملك سعود
الرياض - السعودية

مقدمة

لاتُعَدُّ فكرة إيجاد الممارس الباحث فكرة جديدة بحد ذاتها في حقل الخدمة الاجتماعية، وإنما الجديد بالأمر هو ظهور طرق بحث تسهل عملية الدمج بين عمل الباحث الاجتماعي وبين الأخصائي الاجتماعي الممارس للخدمة الاجتماعية، ومما لا شك فيه أن للبحث أهمية قصوى في الخدمة الاجتماعية، فعن طريق البحث تستطيع المهنة تقويم أدائها مع عملائها، وبناء نماذج ممارسة فَعّالة، والتأكد من فعالية نماذج ممارسة جديدة، ولغة البحث هي لغة العلم، وهي اللغة المشتركة بين جميع المنتمين للمهنة، لذا يجب إعطاء البحث حقه لممارسة دوره في تنمية وتطوير المهنة.

وتجدر الإشارة إلى أن مُعظم الدراسات التطبيقية والتي تسعى إلى تقويم التدخل المهني في حقل الخدمة الاجتماعية والتخصصات المشابهة مثل علم النفس والطب النفسي تستخدم تصميمات البحث التجريبية experimental designs، والتي تعتمد على المقارنة بين جماعتين: تجريبية، وضابطة، وهذه التصاميم وإن كانت تستطيع الإجابة عن العديد من التساؤلات، إلا أن الظروف المواتية لاستخدامها لاتتوافر دائماً مما يقلل من إمكانية الاعتماد عليها في الخدمة الاجتماعية، ففي حقل الخدمة الاجتماعية غالباً ما يكون التدخل المهني مُصَمَّماً لفرد واحد، أو لمجموعة قليلة من الأفراد، مما يؤدي بدوره إلى جعل عملية تقويم التدخل المهني شبه مستحيلة باستخدام المنهج التقليدي في البحوث، لذا لزم اللجوء إلى منهجية بحث تلائم طبيعة التدخل المهني المستخدم في الخدمة الاجتماعية. ولقد قدمت تصميمات النسق المفرد singel system designs في الولايات المتحدة الأمريكية بهدف سَدّ الفجوة بين الباحثين والممارسين من ناحية، وتوفير منهجية

لتقويم التدخلات المهنية تتناسب مع طبيعة تلك التدخلات المستخدمة في الخدمة الاجتماعية من ناحية أخرى، ويهدف هذا البحث إلى تقديم تصميمات النسق المفرد والتي تُعَدُّ طريقة بحث، وفي الوقت نفسه طريقة ممارسة في حقل الخدمة الاجتماعية، وحيث إن الكتابات عن تصميمات النسق المفرد نادرة في اللغة العربية، على حد علم الباحث، فإنه يمكن تحديد مشكلة البحث في «مدى إمكانية نقل تصميمات النسق المفرد، وهي تجربة أمريكية، إلى العالم العربي».

وسيحاول الباحث من خلال عرضه لهذه التصميمات الإجابة على التساؤلات التالية: (1) هل تساعد تصميمات النسق المفرد على سَد الفجوة بين الباحثين والممارسين؟ (2) هل تساعد تصميمات النسق المفرد على تقويم فعالية الممارسة في الخدمة الاجتماعية؟ وسيتبع الباحث المنهج الوصفي في تقديمه تصميمات النسق المفرد، وسيعتمد في ذلك على مسح للمراجع والأدبيات الخاصة بالموضوع، وتجدر الإشارة إلى الصعوبات المرتبطة بكتابة هذا البحث المكتبي والمتمثلة في الآتي: (1) ندرة المراجع العربية في أدبيات الخدمة الاجتماعية عن تصميمات النسق المفرد. (2) عدم وجود تطبيقات لتصميمات النسق المفرد، على حد علم الباحث، في العالم العربي. (3) الصعوبات المتمثلة في نقل وترجمة المصطلحات الإنجليزية المرتبطة بالموضوع إلى اللغة العربية. هذا وسوف يتسم هذا البحث بالشمولية من حيث تناول المواضيع المتعلقة بهذه التصميمات، إذ يحتوي المقال نبذة تاريخية عن تصميمات النسق المفرد، والتعريف بها، وعرضاً لبعض أنواعها مع مناقشة لمزاياها وعيوبها.

نبذة تاريخية عن تصميمات النسق المفرد

يعود تاريخ تصميمات النسق المفرد إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ويرجع الفضل في تطوير هذه التصميمات إلى رواد المدرسة السلوكية أمثال بافلوف (Pavlov) وسكنر (Skinner)، حيث اعتمدوا على تصميمات النسق المفرد في تطوير نظرياتهم (Levy, 1987: 589)، أما بالنسبة للخدمة الاجتماعية، فعلى الرغم من أن تاريخ هذه التصميمات يُعَدَّ حديثاً نسبياً، فإنه يتطلب التطرق لبعض التغيرات التي طرأت على المهنة منذ الستينيات الميلادية.

ترتكز الخدمة الاجتماعية على قاعدة معرفية عريضة من النظريات والنماذج النظرية، والتي استعارتها من التخصصات وثيقة الصلة بها، وعلى الأخص علم

النفس وعلم الاجتماع، فلقد تَبَنَّت المهنة خلال الستينيات والسبعينيات الميلادية نظريات ونماذج ممارسة لم تكن معروفة من قبل (محمد، 1983 :51)، ومنها على سبيل المثال، التدخل في الأزمات وتعديل السلوك ونظرية الانساق العامة (Fischer, 1981: 204; Rodway, 1986: 515) . وتزامن ذلك، خلال السبعينيات الميلادية، مع ظهور الاتجاه الشمولي في الممارسة، والذي يدعو لدمج طريقة خدمة الفرد، وطريقة خدمة الجماعة، وطريقة تنظيم المجتمع (محمد، :50-52 1983)، لذا فإن مصطلح ممارسة الخدمة الاجتماعية (عوضا عن ممارسة خدمة الفرد وممارسة خدمة الجماعة، على سبيل المثال) لم يكن معروفا قبل السبعينيات الميلادية (Hepworth & Larsen, 1990: 20) .

وكان نتيجة لهذه التغيرات التي طرأت على المهنة في ذلك الوقت أن أصبح الأخصائيون الاجتماعيون في حيرة من أمرهم فيما يتعلق بنماذج وطريقة الممارسة (محمد، 1983 :59)، فلقد وجد ثاير (Thyer, 1987:150) أن عدداً قليلاً من الأخصائيين الاجتماعيين يظهرون مايدل على أنهم يتبنون أو يوظفون أي معرفة نظرية في الممارسة، وأن معظمهم يصفون توجهاتهم النظرية بأنها انتقائية.

وعلى الرغم من ذلك فلقد كان الاعتقاد السائد وحتى السبعينيات الميلادية لدى الممارسين المهنيين أن تدخلاتهم المهنية فعالة (Ruckdeschel & Farris, 1981: 414) واستمر هذا الاعتقاد سائداً إلى الوقت الذي نشر فيه (Joel Fischer) مقاله الشهير {Is Casework Effective?}. فلقد انتقد فيشر (Fischer, 1973) ممارسة الخدمة الاجتماعية، وذكر أنها غير فعالة مع العملاء، كما ذكر أن فعالية الممارسة يجب ألّا تؤخذ على أنها أمر مفروغ منه، وأن على الممارسين المهنيين إذا انفجرت فترددت أصداؤها في كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، فلقد كُتِبَ الكثير من المقالات ما بين مؤيد ومعارض للمزاعم التي أوردها (Fischer) في مقاله، وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر، اتفقت معظم هذه الكتابات على أن الخدمة الاجتماعية تعاني من أزمة متمثلة في عدم عملائها، كما اتفقت هذه الكتابات على أن أسباب هذه الأزمة تكمن في عدم تطبيق نتائج الدراسات والاستفادة منها خلال الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية.

ولقد تزامنت دعوة فيشر بضرورة وجود ممارسة فَعَّالة للخدمة الاجتماعية مع الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بهاالولايات المتحدة في ذلك الوقت

مما عَزَّز جدوى الدعوة، والتي امتدت منذ ذلك الوقت وحتى وقتنا الراهن، حول مسؤولية الخدمة الاجتماعية، ويقصد بذلك مسؤولية الخدمة الاجتماعية أمام نفسها وأمام المجتمع وأمام عملائها بتقديم خدمات فعالة. ومن هنا أثيرت قضية الفجوة بين الباحثين والممارسين، وبدأت أصابع الاتهام تشير إلى الممارسين، وعدم قدرتهم على الاستفادة من نتائج البحوث والدراسات، وتوظيفها خلال ممارستهم للمهنة، وبدأت التساؤلات تُثار في تلك الحقبة الزمنية حول تعليم الخدمة الاجتماعية ومدارسها، وهل تقوم فعلاً بإعداد خِرِّيجيها للاستفادة من نتائج البحوث في ممارستهم أو لا.

فلقد قام كيرك وروزنبليت (Kirk & Rosenblatt, 1981: 124-128) بإجراء دراسة على طلاب الخدمة الاجتماعية المنخرطين في برامج البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في الجامعات الأمريكية لمعرفة اتجاهاتهم نحو البحث، وحجم معرفتهم بمناهج وطرق البحث وخبرتهم في البحوث، ووجدا أن هناك علاقة إيجابية (r.65) بين عدد سنوات الدراسة (من السنة الأولى في البكالوريوس إلى مرحلة الدكتوراه) وبين مجموع مواد البحث والإحصاء التي أنهاها الطالب، كما وجدا أيضاً أن الطلاب الذين أنهوا مواد بحث أكثر من غيرهم كان لديهم إتجاهات رأي إيجابية نحو البحث.

كان الممارسون المهنيون وحتى الثمانينيات الميلادية يُستخدمون كعينات للبحوث التي تجري بهدف التعرف على أسباب الفجوة القائمة بين الباحثين والممارسين، وهذا ضمنياً يلقي باللوم على الممارسين المهنيين، لذا، وفي محاولة لتغيير هذا التركيز على الممارسين المهنيين قام كوقر وكاقل (Cowger & Kagel, 1980: 82-85) بدراسة وتحليل 280 مقالا نُشِرَت في أربع دوريات رئيسة في الخدمة الاجتماعية، وكان الهدف من دراستهما لهذه المقالات هو معرفة المقدار الذي تقدمه البحوث والدراسات، مما قد يفيد الأخصائيين الاجتماعيين خلال ممارستهم للخدمة الاجتماعية، وهذه الدوريات هي:

(1) Social Work.
(2) Social Service Review.
(3)Social Casework.
(4) Child Welfare.

وقد استعرضا المقالات التي نُشِرَت بين عام 1974 - وعام 1978م، ووصلا إلى أنه من بين هذه المقالات كلها يوجد فقط 81 مقالا من الممكن أن يُستفاد منها

في ممارسة الخدمة الاجتماعية، أي بمعدل يقل عن 17مقالاً في السنة، وإذا أخذنا في الحسبان مجالات الممارسة المتعددة للخدمة الاجتماعية يتضح لنا أن الخدمة الاجتماعية تعاني من قلة البحوث وثيقة الصلة بالممارسة.

يتضح من واقع هاتين الدراستين المعبرتين، من وجهة نظر الباحث، عن طبيعة الخلاف الجدلي بين الباحثين والممارسين، أن الصلة بين البحث والممارسة في الخدمة الاجتماعية معدومة إلى حدٍ ما فكل منهما له دور ووظيفة تُؤدَّى بمعزل عن الأخر، والذي شأنه إذا ما استمر أن يؤدي إلى تدهور المهنة، لذا بدأ البحث عن طريقة يجري بها دمج دور الباحث بدور الممارس المهني، ومن هنا بدأت الكتابات عن تصميمات النسق المفرد تظهر وبكثرة في الدوريات العلمية الخاصة بالخدمة الاجتماعية، وبدأ أنصارها ينادون بها على أنها تُمثِّل حلقة الوصل المفقودة بين الممارسين والباحثين، وعلى أنها الطريقة التي تجعل الباحث يهتم بالممارسة، ويربط أبحاثه بها، وتجعل الممارس يهتم بالبحث ومفاهيمه، ويطبقها خلال ممارسته اليومية للمهنة.

تصميمات النسق المفرد

توفر تصميمات النسق المفرد طريقة علمية منظمة لجمع وعرض وتحليل البيانات، وتعتمد هذه التصميمات على التدخل المهني المُخطَّط له من البداية إلى النهاية، والذي يهدف إلى إحداث تغيير مقصود في مشكلة سلوك العميل، وتُؤدِّي تصاميم النسق المفرد وظيفة أساسية على صعيدي الممارسة والبحث في الخدمة الاجتماعية، فخصائص هذه التصميمات تجعلها قابلة للاستخدام من قبل الأخصائي الاجتماعي الذي يقوم بممارسة الخدمة الاجتماعية، وكذلك من قبل الباحث (Polster & Lynch, 1985: 389).

وتجدر الإشارة إلى أنه ليس هناك تسمية ثابتة لتصميمات النسق المفرد، فلقد أُطلق العديد من الأسماء على هذا النوع من التصميمات مثل (رقم = 1) (N=1) وتصميمات العينة الواحدة Single - case designs إلا أن اسم تصميمات النسق المفرد هو الأنسب، وذلك نظراً لأنها من الممكن أن تُستخدم مع الأفراد أو الجماعات أو الأسر طالما أنهم يمثلون نسقاً واحداً، وتُعرَّف هذه التصميمات أنها

«تكرار جميع البيانات والمعلومات عبر الوقت عن نسق مفرد سواء كان هذا النسق شخصاً أو عائلة أو مجموعة من الأشخاص أو منظمة أو حتى مجتمعاً صغيراً» (Bloom & Fischer, 1982: 8).

ويمكن تصنيف تصميمات النسق المفرد على أنها تصميمات بحث شبه تجريبية quasi-experimental designs وذلك بناء على المفاهيم والمحددات التي وضعها كامبل واستانلي (Campbell & Stanley, 1963). حيث أُسْتُخدِم في بناء هذه التصميمات المنطق نفسه المستخدم في بناء تصميمات البحث التجريبية، إلا أنها تفتقر إلى وجود العينة الضابطة والتوزيع العشوائي randomization لأفراد العينة (Rucdeschel & Farris, 1981: 413). فتصميمات النسق المفرد تعمل على إيضاح العلاقات الوظيفية بين المتغير المستقل والمتغير التابع، شأنها في ذلك شأن تصميمات البحث التجريبية، فلا يختلف المنطق التجريبي الذي تستند عليه تصميمات النسق المفرد وتصميمات البحث التجريبية، إذ إن كُلاً منهما يشتمل على تحديد أثر التدخل المهني عن طريق مقارنة قيمة المتغير التابع في ظروف تجريبية مختلفة، ويتم ذلك في تصميمات البحث التجريبية بتعريض المجموعة الضابطة والمجموعة التجريبية لظروف تجريبية متماثلة عدا المتغير المستقل والذي يتم حجبه عن المجموعة الضابطة، أما في تصميمات النسق المفرد فيكون ذلك بتعريض نسق العميل لظروف تجريبية مختلفة (مرحلة الخط القاعدي ومرحلة التدخل المهني) وعلى نحو متتابع، وتشترك تصميمات النسق المفرد مع منهج دراسة الحالة Case study (أحد مناهج طرق البحث الكيفية) في التركيز على دراسة الحالة بعمق وعدم قابلية نتائجهما للتعميم لصغر حجم العينة المستخدمة، وإن كانت تصميمات النسق المفرد تتفوق على منهج دراسة الحالة في كونها تُسْتَخْدَمُ بغرض التقويم (تقويم فعالية التدخل المهني). فتصميمات النسق المفرد مبنية على المنطق التجريبي، أما منهج دراسة الحالة فلا يقدم سوى وصف للمتغير التابع موضع الدراسة. ومهما كانت درجة شمولية الوصف فإنه لايقدم إيضاحاً للضبط التجريبي. وبمعنى أخر، يفتقر منهج دراسة الحالة إلى الأساس والمنطق التجريبي اللازم لعزو التغيير الذي حدث في المتغيرّ التابع للتدخل المهني المستخدم (المتغير المستقل)، وكذلك تشترك تصميمات النسق المفرد في عملية تكرار القياس مع تصميمات السلاسل الزمنية time serier desiqns، إذ يتم في تصميمات

السلاسل الزمنية تكرار قياس المتغير التابع قبل وبعد التدخل المهني، ولما كانت تصميمات السلاسل الزمنية لاتقدِّم فكرة عن مدى فعالية التدخل المهني أثناء حدوثه، كان هناك حاجة لوجود تصميمات تساعد على معرفة ما يحدث خلال مرحلة التدخل المهني، ومن هنا كانت تصميمات النسق المفرد نقطة انطلاق من تصميمات السلاسل الزمنية، إذ يتم في تصميمات النسق المفرد تكرار قياس المتغير التابع قبل التدخل المهني وفي أثنائه وأحياناً بعده (تبعاً لنوع التصميم المستخدم).

وتشترك تصميمات السلاسل الزمنية مع تصميمات البحث التجريبية في خاصية عدم إمكانية إحداث تغيير أو تعديل في التدخل المهني حتى يتم الانتهاء منه تماما، أما تصميمات النسق المفرد فتُمَكِّن الممارس المهني من إحداث تغيير أو تعديل في التدخل المهني، أو حتى إيقافه واستبداله بآخر متى ثبت عدم فعاليته.

مكونات تصميمات النسق المفرد

1 - **تكوين وبناء المقياس**: تُعْرَف عملية القياس عادة بأنها الإجراءات التي عن طريقها يجري إعطاء قيم معينة أو علامات معينة للأشياء تبعاً لمجموعة من الضوابط والنظم التي تحكمها، وهذه القيم أو العلامات قد تكون أسماءً أو صفاتٍ (على سبيل المثال: ذكر، أنثى.. إلخ) أو أرقاماً وهي الأكثر شيوعاً (على سبيل المثال: أوافق بشدة = 1، أوافق =2، لا أدري = 3، لا أوافق = 4، لا أوافق على الإطلاق = 5) (Bloom & Fiscer, 1982: 32-33).

وبناء المقياس ليس بالعملية السهلة في أي حال من الأحوال، بل يُجْرى عن طريق خطوات معقدة وحساسة لايتسع المجال لذكرها في هذا البحث، إلا أنه يجب التنبيه عند بناء المقياس إلى أنه يتميز بالصدق والثبات إلى درجة مطمئنة (Tawney & Gast, 1984: 88 - 89). وبإمكان الأخصائي الاجتماعي الاستعانة بالمقاييس التي سبق إعدادها، والتي تتميز بقدر من الصدق والثبات.

2 - **مرحلة الخط القاعدي Baseline**: وهي مرحلة تسبق مرحلة التدخل المهني، حيث يقوم الأخصائي الاجتماعي بالتحديد الدقيق للمشكلة أو السلوك المراد تغييره أو تعديله، والذي يتمثل في اتجاهات العميل، أو مشاعره واستجاباته، أو أفكاره ومعتقداته، أو ظروفه البيئية، أو أي من العوامل السابقة مجتمعة (Bloom & Fischer, 1982: 54-56)، إذ إن غموض الموقف وعدم تحديده

بدقة، يُعَدُّ من أهم المعوقات الرئيسة لتحديد التدخل المهني الملائم وتعيين أبعاده وتقنياته وأهدافه. هذا ويقوم الأخصائي في هذه المرحلة بقياس أبعاد الموقف الإشكالي أو السلوك المراد تغييره أوتعديله والذي يُعَدُّ بمثابة المتغير التابع دون إحداث تدخل مهني أو تقديم مساعدة للعميل، ويتعيَّن أن يكون القياس بصورة متكررة ودورية ولفترة من الزمن تختلف حسب طبيعة المشكلة، بهدف التأكد من ثبات ذلك المتغير، بمعنى التأكد من أن الموقف الإشكالي أو السلوك المراد تغييره أو تعديله يُمثل الواقع الفعلي الذي يتفق العميل مع الأخصائي على أهمية إخضاعه للتغيير المطلوب.

3 - مرحلة التدخل المهني Intervention: بعد أن يتأكد الأخصائي الاجتماعي من ثبات المتغير التابع إلى درجة تسمح بملاحظة أي تغيير قد يطرأ عليه، يقوم الأخصائي الاجتماعي بالتدخل مهنيا مع العميل وتقديم عملية المساعدة، وفي هذه المرحلة تستمر عملية قياس المتغير التابع بالطريقة الدورية نفسها التي جرى اتباعها في مرحلة الخط القاعدي. وتتطلب هذه المرحلة أمرين رئيسين:

الأول: تحديد أهداف التدخل المهني: إن الفرق بين تحديد المشكلة وتحديد الأهداف هو الفرق نفسه بين ماهو كائن وبين ما يجب أن يكون، وكما سبق أن ذكرنا، فإن تصميمات النسق المفرد بالإضافة إلى كونها طريقة بحث فهي طريقة ممارسة في الخدمة الاجتماعية، ومن هذا المنطلق فإن تحديد الأهداف يأخذ طابع الأهمية، حيث إن تحديد الأهداف يُملي على الأخصائي الاجتماعي اختيار الطرق الملائمة للتدخل، وتحديد تقنيات الممارسة وأساليبها التي تحقق الأهداف المبتغاة (Nelson, 1984: 5).

الثاني: التعريف الدقيق للتدخل المهني: يلي تحديد المشكلة وتعريفها تعريفاً دقيقاً تحديد التدخل المهني (المتغير المستقل)، وتعريفه تعريفاً إجرائياً دقيقاً وواضحاً، بمعنى اختيار النماذج أو الأساليب التي سوف تستخدم في التعامل مع الموقف الذي يكَوِّن المشكلة - أو السلوك المحدد الذي جرى الاتفاق على تغييره أو تعديله - والتي يجب أن تتسق مع نوعية التعديل أو التغيير المراد تحقيقه حسب الأهداف التي سبق تحديدها (Gambrill & Barth, 1980: 16; Nelson, 1985: 3). ويرجع ذلك لسببين، أولهما: أنه إذا لم يَجْرِ تعريف التدخل المهني تعريفاً دقيقاً

واضحاً فلن يكون باستطاعة الآخرين من ممارسين أو باحثين إعادة استخدام التدخل المهني نفسه مع عملاء آخرين مما يفقد القيمة البحثية لتصميمات النسق المفرد أو أي طريقة بحث أخرى، وثانيهما: أنه بدون التعريف الواضح الدقيق للتدخل المهني لن يكون باستطاعة الممارس المهني تقديم نتيجة جازمة لمدى فعالية تدخله المهني (Polster & Lynch, 1985: 387).

خصائص تصميمات النسق المفرد

1 - تكرار القياس Repeated Measures: أهم مايُميز تصميمات النسق المفرد عن غيرها من تصميمات البحث التقليدية هو تكرار تطبيق المقياس خلال فترة زمنية معينة، فالأخصائي الاجتماعي يقوم بتطبيق المقياس المراد تطبيقه على مرحلتين متصلتين، مرحلة الخط القاعدي ومرحلة التدخل المهني (Hayes, 1981: 195, Nelson, 1981: 31)، ويُفضل أن يبدأ القياس في مرحلة مبكرة بقدر المستطاع، كما يُفضل استخدام أكثر من مقياس متى كان ذلك مُتاحاً حتى تزداد مصداقية البحث، وتلعب خبرة الأخصائي الاجتماعي دوراً كبيراً في إمكانية تكوين تصور ملائم للمشكلة قبل نهاية المقابلة الأولى. وحين بدء القياس من المقابلة الأولى فإنه مع نهاية الفترة الطبيعية التي تستغرقها عملية التشخيص، سوف يكون الأخصائي قد حصل على خط قاعدي أو قياس للمشكلة أو السلوك المراد تغييره أو تعديله، وبصفة عامة فإن إجراء القياس في مرحلة مُبَكِّرة يساعد الأخصائي الاجتماعي في التأكد من الفروض التشخيصية، ومن ثَمَّ التوصل إلى التشخيص النهائي (Hayes, 1981: 195).

2 - التمثيل البياني: يُعد التمثيل البياني أحد خصائص تصميمات النسق المفرد. فخلافا لتصميمات البحث التقليدية والتي يضطر معها الباحث أو الممارس إلى الانتهاء من تدخله المهني حتى يستطيع أن يُقوم مدى فعاليته مع العميل، تُمكن تصميمات النسق المفرد الممارس أو الباحث من متابعة التدخل المهني وتقويمه في الحال وذلك عن طريق التغذية العكسية المستمرة continuous feedback. هذه التغذية العكسية يتم الحصول عليها عن طريق عملية القياس ويتم تمثيلها بيانيا في الحال بعد كل مقابلة مع العميل مما يسهل عملية تقويم التدخل المهني.

ولايتطلب التمثيل البياني لتصميمات النسق المفرد من ورقة واحدة يُرْسَمُ فيها التصميم المستخدم، وبعدها يقوم الأخصائي الاجتماعي بتسجيل القياس

بشكل دوري حتى يكتمل التدخل المهني، ويحقق التمثيل البياني هدفين، أولهما: يُسهل على الأخصائي القائم بالتدخل المهني سرعة استرجاع المعلومات الخاصة بالعميل، والتي يحتاجها قبل البدء بأي مقابلة جديدة مع العميل، فكل ما يحتاجه الأخصائي الاجتماعي هو النظر إلى الرسم البياني ليعرف حالة العميل ومدى تحسنه ومدى فعالية التدخل المهني معه. وثانيهما: يُسهل التمثيل البياني عملية الإشراف على الأخصائيين الاجتماعيين في المؤسسات خصوصا تلك التي يوجد بها عدد كبير من الأخصائيين وكل يعمل مع مجموعة من الحالات، فمن الصعوبة على مدير المؤسسة أو المشرف على الأخصائيين الاجتماعيين متابعة كل حالة على حدة، وقراءة ملف كل حالة، أو حتى مقابلة جميع الأخصائيين الاجتماعيين لسؤالهم عن الحالات التي يعملون معها، ولكن بإمكانه وبسهولة الحصول على رسم بياني عن كل حالة لايحتاج معها إلا إلى إلقاء نظرة واحدة ليعرف آخر ما وصلت إليه حالة العميل.

أنواع تصميمات النسق المفرد

تتكون تصميمات النسق المفرد من عنصرين رئيسين هما الخط القاعدي والتدخل المهني، حيث يجري في مرحلة الخط القاعدي، كما ذكرنا سابقا، قياس المتغير التابع قبل بدء التدخل المهني، ويجري في مرحلة التدخل المهني قياس المتغير التابع في أثناء التدخل المهني. ومن هذين العنصرين يمكن بناء العديد من التصميمات التي تتفاوت في قوتها والهدف من استخدامها وطريقة استخدامها ومزاياها وعيوبها. ويُستخدم في تصميمات النسق المفرد الحرف اللاتيني (A) ليرمز لمرحلة الخط القاعدي، ويستخدم الحرف اللاتيني (B) ليرمز لمرحلة التدخل المهني، كما يستخدم الحرف اللاتيني (C) ليرمز لمرحلة تدخل مهني أخرى. وفيما يلي عرض لبعض النماذج المُمَثِّلة لتصميمات النسق المفرد:

1 – تصميم A-B Design (A-B): يُعَدُّ هذا التصميم أساس تصميمات النسق المفرد وأبسطها من الناحيتين المنطقية والعملية، إذ يحوي مرحلتين فقط؛ مرحلة الخط القاعدي ومرحلة التدخل المهني (انظر شكل رقم 1)، ويرتكز هذا التصميم على افتراض أن المشكلة الملاحَظة والظروف المحيطة بها أو المسببة لها ثابتة نسبياً، لذا فإن التغيير الذي قد يلاحَظ في مرحلة التدخل المهني يمكن أن يُعْزَى للتدخل المهني نفسه، وهذا التصميم من أكثر التصميمات شيوعاً واستخداماً لكونه يتناسب مع معظم أنواع التدخل المهني التي يستخدمها

الأخصائيون الاجتماعيون. ويُنتقد هذا التصميم لكونه لا يُعطي الممارس المهني فكرة عن وضع العميل بعد مرحلة التدخل المهني وإنهاء العملية العلاجية، فمن الممكن أن تُعزَى النتائج الملاحظة على مشكلة / سلوك العميل خلال فترة التدخل المهني إلى عوامل أو مؤثرات أخرى. ومن هذا المنطلق فإن استخدام هذا التصميم لايُمَكِّن الأخصائي الاجتماعي من الوصول إلى نتيجة قاطعة بشأن تدخله المهني. بمعنى أن تدخله المهني هو المؤثر الوحيد الذي أثر في سلوك العميل أو مشكلته.

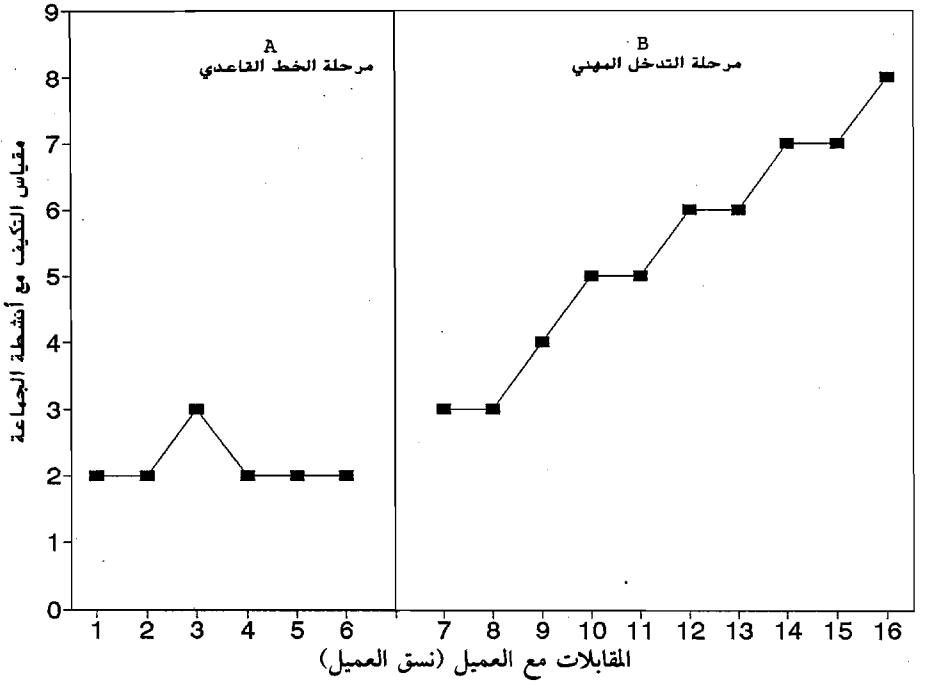

ملاحظة: جميع البيانات الممثلة بيانيا افتراضية وليست حقيقية

شكل رقم (1)

2 – تصميم A-B-A Design (A-B-A): يحوي تصميم (A-B-A) مرحلة الخط القاعدي، ومرحلة التدخل المهني ومرحلة العودة إلى الخط القاعدي (انظر شكل رقم 2)، والهدف من هذا التصميم هو التأكد أن التغيير المُلاحَظ في فترة التدخل المهني ناجم عن التدخل المهني نفسه وليس لأي سبب آخر، ويقوم الأخصائي الاجتماعي الذي يستخدم هذا التصميم بمقارنة مرحلة التدخل المهني بمرحلة الخط القاعدي. وجدير بالذكر أن

هذاالتصميم لايتناسب مع جميع المشاكل التي يتعامل معها الأخصائي الاجتماعي، ولاجميع أنواع التدخل المهني المتاحة للأخصائي الاجتماعي، فقد يعاني العميل من قصور في معرفة أمرما، وتأخذ طبيعة التدخل المهني عملية تبصير العميل وتثقيفه، وعندما يقوم الأخصائي الاجتماعي بتبصير العميل وتثقيفه فإنه لايستطيع سحب أو حجب ماقَدَّمه للعميل مرة أخرى، ومن ثَمَّ فإن فترة العودة إلى الخط القاعدي تكون في الواقع امتداداً لفترة التدخل المهني (Thomas, 1978: 21). وقد يكون أنسب أنواع التدخل المهني مع تصميم (A-B-A) هو اتجاه تعديل السلوك حيث يعتمد على (مثير - استجابة)، بحيث يكون التدخل المهني هو المثير والتغيير المُلاحظ في سلوك العميل هو الاستجابة، وهنا بإمكان الأخصائي الاجتماعي حجب المثير عن العميل ليتأكد ما إذا كانت استجابة العميل مُرتبطة بالتدخل المهني فقط وليس لها علاقة بعوامل أخرى.

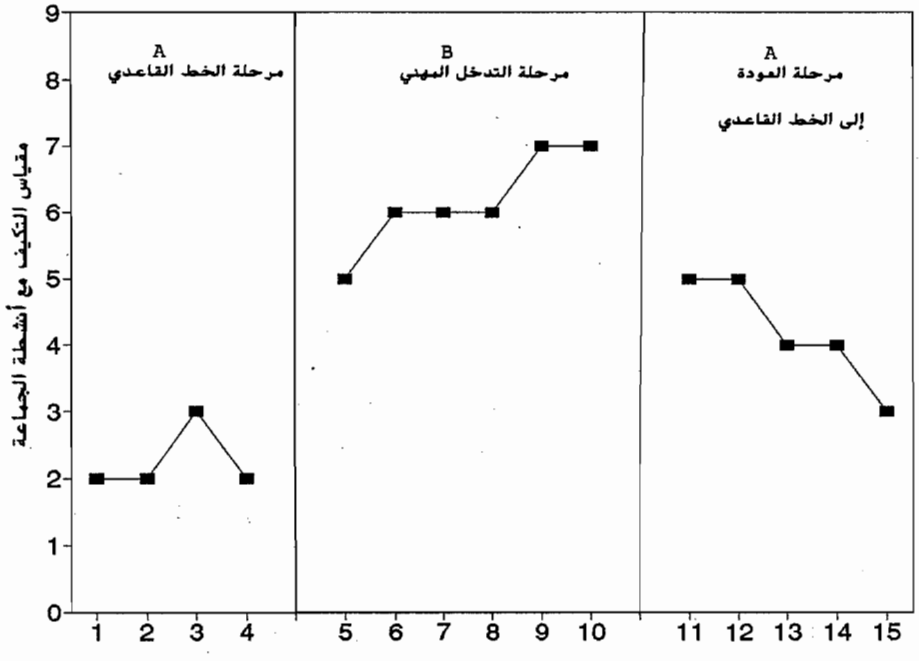

ملاحظة: جميع البيانات الممثلة بيانيا افتراضية وليست حقيقية

شكل رقم (2)

ومن الانتقادات التي وُجِّهَتْ إلى هذا التصميم أنه يبدأ بمرحلة الخط القاعدي، ومن ثَمَّ مرحلة التدخل المهني، وينتهي بعودةٍ إلى مرحلة الخط القاعدي، وهذا يعني بطريقة أو بأخرى العودة بالعميل من حيث بدأ، أو الوضع الذي كان عليه قبل مرحلة التدخل المهني، وعلى الرغم من أن هذا الانتقاد منطقي من الناحية النظرية، فإنه غير متماسك من الناحية العملية، حيث إن جميع أنواع التدخل المهني تنتهي في وقت من الأوقات، لذا فإن هذا التصميم لايختلف عن تصميم (A-B) إلا في كونه يُخضِع العميل لفترة متابعة بعد التدخل المهني وقبل إنهاء العملية العلاجية برمتها.

3 – **تصميم A-B-A-B Design (A-B-A-B)**: يحوي هذا التصميم أربع مراحل مختلفة، وهي مرحلة الخط القاعدي، ومرحلة التدخل المهني الأول، ومن ثَمَّ مرحلة العودة إلى الخط القاعدي، ويحدث فيها إيقاف التدخل المهني، وأخيراً مرحلة إعادة التدخل المهني (انظر شكل رقم 3)، وهذا التصميم يعتبر من أقوى تصميمات النسق المفرد فهو يُمكِّن الأخصائي الاجتماعي من الحكم، إلى حد كبير، على مدى فعالية تدخله المهني، فباستطاعة الأخصائي الاجتماعي أن يتأكد لدرجة كبيرة أن تدخله المهني فَعَّال مع العميل، إذا لاحظ أنه في كل مرحلة يُقَدِّم فيها التدخل المهني يحصل على نتائج إيجابية، وفي كل مرحلة لايكون فيها التدخل المهني مُقدَّماً، تختفي النتائج الإيجابية. وكما هو مُلاحَظ فإن هذا التصميم يُعَدُّ امتداداً لتصميم (A-B-A)، إذ يزيد عليه بمرحلة إعادة التدخل المهني التي ينتهي فيها تصميم (A-B-A-B)، وهذا التصميم يُنهي العملية العلاجية بمرحلة تدخل مهني، وهو بذلك يتحاشى النقد الأساسي المُوجَّه لتصميم (A-B-A).

4 – **تصميم B-A-B Design (B-A-B)**: يحوي هذا التصميم ثلاث مراحل: مرحلة التدخل المهني، ومرحلة الخط القاعدي، ومرحلة إعادة التدخل المهني (انظر شكل رقم 4)، ويختلف هذا التصميم عن غيره من التصميمات إختلافاً جذرياً، وذلك لكونه يبدأ بمرحلة التدخل المهني مباشرة وبدون المرور بمرحلة الخط القاعدي، وهذا التصميم لايُستَخْدَم في حالات الممارسة المهنية العادية، بل يقتصر استخدامه على أوقات الضرورة، ومع نموذج التدخل في الأزمات crisis intervention، وكلاهما يتطلب إجراء تدخل مهني مباشر مع العميل بدون اللجوء إلى مرحلة الخط القاعدي، وبعد تقديم التدخل المهني وتهدئة المشكلة الطارئة التي يعاني منها العميل يقوم الأخصائي بإيقاف التدخل المهني، ويبدأ مرحلة بناء الخط القاعدي للمشكلة حتى يتأكد من ثبات القياس، وأخيراً يقوم الأخصائي الاجتماعي بإعادة التدخل المهني نفسه، ويُعَابُ على هذا التصميم أنه لايُمكِّن الأخصائي الاجتماعي من إعطاء حكم قاطع لتدخله المهني لافتقاده لمرحلة الخط القاعدي، والتي عن طريقها يستطيع الممارس المهني تقويم مشكلة سلوك العميل قبل إجراء التدخل المهني.

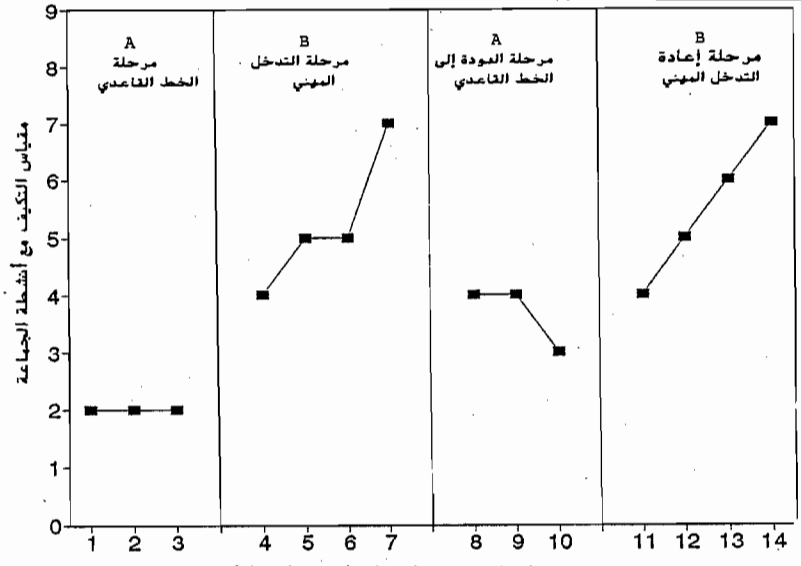

ملاحظة: جميع البيانات الممثلة بيانيا افتراضية وليست حقيقية.

شكل رقم (3)

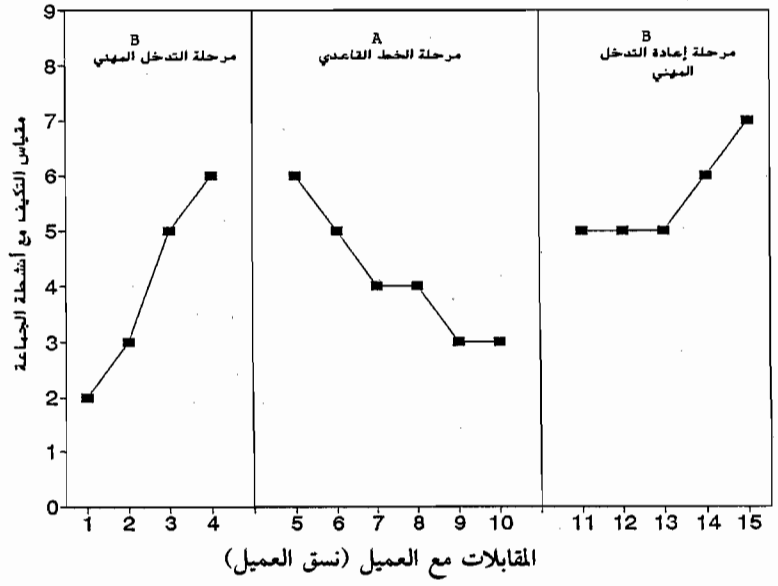

ملاحظة: جميع البيانات الممثلة بيانيا افتراضية وليست حقيقية.

شكل رقم (4)

5 – تصميم A-B-C Design (A-B-C): يختلف هذا التصميم عن غيره من التصميمات لكونه يحوي نوعين من التدخل المهني، فهو يتكون من ثلاث مراحل: ابتداءً بمرحلة الخط القاعدي، ومروراً بمرحلة التدخل المهني الأول، وينتهي بمرحلة التدخل المهني الثاني (انظر شكل رقم 5)، وكما هو ملاحظ فإن هذا التصميم يُعَدُّ امتداداً للتصميم الأساسي **(A-B)** مع زيادة مرحلة تدخل مهني أخرى، وهناك العديد من الأسباب التي قد تجعل الأخصائي الاجتماعي يفضل استخدام هذا التصميم على غيره من التصميمات الأخرى، فمن الممكن استخدام هذا التصميم إذا رأى الأخصائي الاجتماعي أن تدخله المهني الأول غير ناجح، فقد يقرر استخدام تدخل مهني آخر، والجدير بالذكر أنه من النادر في ممارسة الخدمة الاجتماعية أن يقوم الأخصائي الاجتماعي باستخدام تدخل مهني واحد فقط، فكثيراً ما يقوم الأخصائي الاجتماعي باستخدام أكثر من تدخل مهني مع العميل للوصول به إلى الأهداف العلاجية المنشودة (Bloom & Fischer,1982: 355).

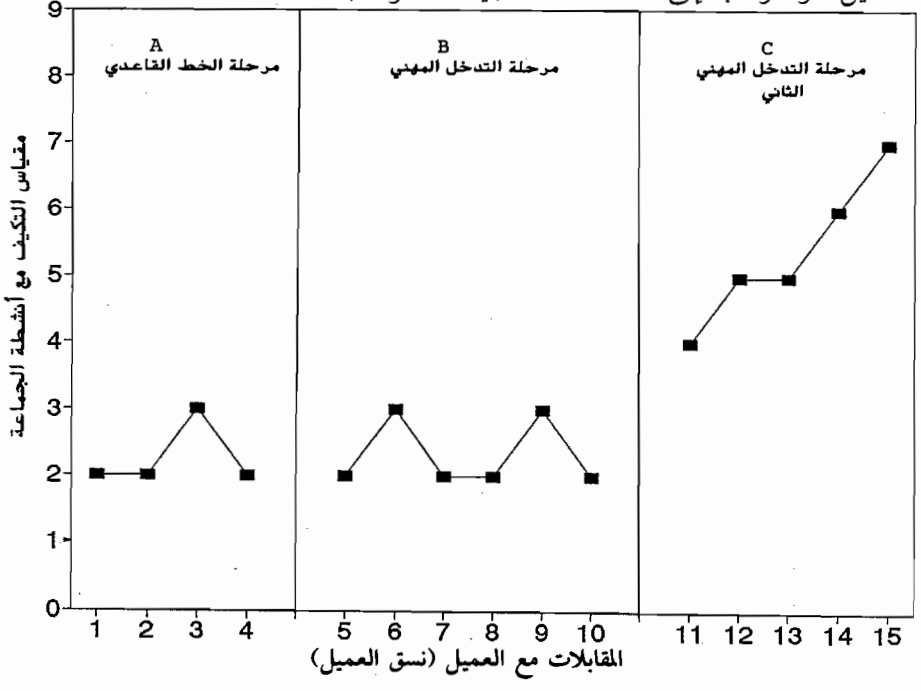

ملاحظة: جميع البيانات الممثلة بيانيا افتراضية وليست حقيقية.

شكل رقم (5)

وقد يلجأ الأخصائي الاجتماعي إلى هذا التصميم إذا احتاج إلى تدريب العميل على بعض المهارات التي تساعده على الحفاظ على النتائج الإيجابية الناتجة عن مرحلة التدخل المهني الأول بدون مساعدة الأخصائي الاجتماعي، وفي هذه الحالة يستخدم الأخصائي الاجتماعي هذا التصميم ليفصل بين مرحلة التدخل المهني الأول وبين التدخل المهني الثاني (المهارات اللازمة للحفاظ على النتائج الإيجابية)، وذلك ليستطيع تحديد مدى محافظة العميل على نتائج التدخل المهني الأول.

إلا أن هذا التصميم لايخلو من جوانب نقص، فاستخدام أكثر من تَدَخُّلٍ مهني يجعل من الصعب على الأخصائي الاجتماعي الوصول إلى نتيجة حتمية بشأن التدخل المهني الثاني، فبمقدور الأخصائي الاجتماعي ملاحظة الفرق بين مرحلة الخط القاعدي ومرحلة التدخل المهني الأول ليحدد أثر التدخل المهني الأول على مشكلة سلوك العميل، ولكن ليس بمقدوره تحديد أثر التدخل المهني الثاني على مشكلة سلوك العميل، وذلك لكون التدخل المهني الأول قد حدث بالفعل، ومن ثَمَّ فإن الأثر الملاحظ في فترة التدخل المهني الثاني قد يكون متأثراً بالتدخل المهني الأول، إلا أنه في حالة ملاحظة أثر ثابت في مرحلة التدخل المهني الأول بغض النظر عما إذا كان هذا الأثر سلبياً أو إيجابياً، فإن باستطاعة الأخصائي الاجتماعي أن يحصل على دليل على أثر التدخل المهني الثاني على مشكلة سلوك العميل.

نقاط القوة في تصميمات النسق المفرد

لتصميمات النسق المفرد العديد من الخصائص التي تجعلها متفوقة على غيرها من تصميمات البحث التقليدية من ناحية وملائمة لطبيعة الخدمة الاجتماعية من ناحية أخرى، وهذه الخصائص هي:

1 – ملاءمتها للمشاكل التي تتعامل معها الخدمة الاجتماعية: إن تصميمات النسق المفرد تسمح للأخصائي الاجتماعي الممارس بالعمل مع العملاء كُلٍّ على حدة، وحسب ظروف العميل، وبالتالي وضع خطة علاجية تكون ملائمة لطبيعة المشكلة التي يعاني منها العمل (Barth, 1981: 20)، وكثيراً ما يُعاب على المنهج الكمي، والذي تندرج تحته تصميمات البحث التجريبية التقليدية، أنه يَهْدُرُ الفروق الفردية، حيث يتم التعامل مع العملاء من حيث هم جماعات وليسوا أفراداً لهم

طبيعتهم وظروفهم ومشاكلهم الخاصة، والتي غالباً ما تكون متباينة، لذا فإن استخدام تصميمات النسق المفرد كفيل بتلافي هذه المشكلة الكامنة في تصميمات البحث التقليدية (Fischer, 1981: 201; Levy, 1987: 591).

2 - **قابليتها للتعديل**: إن طبيعة تصميمات النسق المفرد تتطلب جمع البيانات بصفة دورية (يومية، نصف أسبوعية، أسبوعية.. إلخ. حسب طبيعة المشكلة والظروف المحيطة بها)، لذا فإن هذه السمة لتصميمات النسق المفرد تجعل من السهل على الأخصائي الاجتماعي أن يلاحظ ما إذا كانت الخطة العلاجية المستخدمة مع العميل تأتي بنتائج إيجابية أو سلبية، وفي حالة ملاحظة النتائج السلبية، ما على الأخصائي الاجتماعي إلا عدم الاستمرار في الخطة العلاجية ليمنع تدهور الحالة، كما أن باستطاعته استبدال الخطة العلاجية بأخرى ملائمة، أما في حالة استخدام تصميمات البحث التقليدية، فإن على الأخصائي الاجتماعي الانتظار حتى نهاية الخطة العلاجية المرسومة تماماً ثم جمع البيانات مرة أخرى للتأكد من نتيجة التدخل المهني سلبية كانت أو إيجابية (Cross, 1984: 276; Fischer, 1981: 201; Polster & Lynch, 1985: 382).

3 - **سهولة استخدامها**: جرت العادة على ألّا يقوم الممارسون المهنيون من الأخصائيين الاجتماعيين بإجراء البحوث، حيث إن ذلك ليس من طبيعة عملهم، ويُترْك ذلك للباحثين من أساتذة الجامعات وطلاب الدراسات العليا، هذا الأمر جعل معظم الدراسات التي تُجرَى تخدم أهداف الباحثين أنفسهم، ولاتَمُتُّ بصلة في معظم الأحيان للممارسين أو للعملاء، أما في حالة استخدام تصميمات النسق المفرد فإن البحث يهدف إلى تقويم التدخل المهني كما قد يهدف إلى التأكد من فعالية تدخل مهني جديد، وكلا الهدفين يخدم الممارس المهني والعميل في الوقت نفسه.

4 - **توفر نموذج لإرساء ممارسة فعالة للعميل وللمؤسسة وللمجتمع**: إن استخدام تصميمات النسق المفرد من قبل الأخصائيين الاجتماعيين مع عملائهم كفيل ببناء قاعدة معرفية لهم للاستفادة منها خلال ممارستهم للخدمة الاجتماعية، فتصميمات النسق المفرد تساعد الأخصائي الاجتماعي على تقويم تدخله المهني بصفة مستمرة في أثناء مرحلة التدخل المهني نفسها مما يجعله قادراً على تعديل التدخل المهني أو تغييره تماما إذا لم يحدث التغيير المرغوب فيه، وبالتالي

الوصول إلى تدخل مهني ناجح مع العميل، لذا فإن الاعتماد على تصميمات النسق المفرد من قبل الأخصائيين الاجتماعيين كفيل، إلى حَدٍّ كبيرٍ، بوجود ممارسة فعالة للخدمة الاجتماعية (Briar, 1979: XI; Blythe & Briar, 1985: 488). ومع مداومة استخدام هذه التصميمات من قبل الممارسين المهنيين سوف يكون باستطاعتهم إرساء قاعدة معرفية فَعّالة للخدمة الاجتماعية كفيلة بقيام المهنة بما هو مُناط بها من قِبَل المجتمع، وما هو مُتوقَّع منها من قبل عملائها.

5 – **استغناؤها عن العينة الضابطة:** خلافاً لتصميمات البحث التقليدية والتي تعتمد على المقارنة بين الجماعات، فإن تصميمات النسق المفرد تعتمد على نسق العميل (سواء كان ذلك النسق فرداً واحداً، أو مجموعة من الأفراد، أو أسرة) من حيث هو عينة تجريبية وضابطة في الوقت نفسه، ويتم ذلك عن طريق مقارنة مرحلة التدخل المهني مع مرحلة الخط القاعدي لنسق العميل نفسه، وهنا تبرز قوة تصميمات النسق المفرد حيث إنها توفِّر تغذية عكسية مستمرة للأخصائي الاجتماعي عن سير التدخل المهني خلال مرحلة التدخل المهني نفسها مما يجعله قادراً على تغيير أو تعديل التدخل المهني إذا لم يساعد على تحقيق الهدف المنشود، كماأن هذه الخاصية لتصميمات النسق المفرد تجعل الأخصائي الاجتماعي غنياً عن استخدام عينة ضابطة للتأكد من نتيجة تدخله المهني خاصة وأن العينة الضابطة لاتتوافر دائماً في حقل الخدمة الاجتماعية، كما أن هذه الخاصية تجعل الأخصائي الاجتماعي يتحاشى (كما سنتناول ذلك بالتفصيل لاحقاً) المشكلة الأخلاقية البحثية، والتي تنتج عن استخدام عينة ضابطة لايُقَدَّم لها تدخل مهني.

العينة في تصميمات النسق المفرد هي عبارة عن نسق العميل، سواء كان ذلك النسق شخصاً واحداً أو أسرة أو مجموعة من الأشخاص تشكل فيما بينها نسقاً، وهذه الخاصية الموجودة في تصميمات النسق المفرد تمثل تغيراً جذرياً في مفاهيم البحث السائدة في المنهج الكمي، فقبل ظهور تصميمات النسق المفرد كان المنهج الكيفي يتفوق على المنهج الكمي من حيث قدرته على دراسة حالة واحدة فقط، وهو مايُسَمّى بمنهج دراسة الحالة، أما بعد ظهور هذه التصميمات فمن الممكن دراسة حالة واحدة فقط باستخدام المنهج الكمي، وهنا يُراعَى أنه في حالة

استخدام تصميمات النسق المفرد مع مجموعة من الأفراد أو جماعة، يقوم الأخصائي بحساب الوسط الحسابي لاستجابات الأفراد على المقياس ليحصل على استجابة الجماعة (Polster & Lynch, 1985: 383).

6 - تحاشيها للمشكلة الأخلاقية البحثية الناتجة عن استخدام العينة الضابطة: إحدى المشكلات المصاحبة لتصميمات البحث التقليدية التي تعتمد على المقارنة بين الجماعات هي المشكلة الأخلاقية البحثية، والناتجة عن استخدام عينة ضابطة لايُقَدَّم لها تدخل مهني (Bloom & Fischer, 1982: 13; Fischer, 1981: 199 - 200). فمن الناحية المنطقية يجب أن تُماثِل العينة الضابطة العينة التجريبية تماماً حتى يمكن، إلى حد كبير، الجزم بنتيجةٍ ما، فإذا كانت العينة التجريبية تُعاني من مشكلةٍ ما، يجب أن تكون المشكلة نفسها موجودة عند الجماعة الضابطة، لذا فإن تقديم تدخل مهني (عملية المساعدة) للعينة التجريبية فقط يثير بعض التساؤلات المهمة، وعلى سبيل المثال: ما المصلحة التي جناها أفراد العينة الضابطة؟ هل يجوز حجب عملية المساعدة عن أفراد العينة الضابطة رغم أن حاجتهم لها مثل حاجة أفراد العينة التجريبية؟

وتبرز أهمية هذه التساؤلات في ضوء فلسفة الخدمة الاجتماعية، والتي تقوم على احترام كرامة الإنسان، وعلى تقديم المساعدة لمن يحتاجها من أفراد المجتمع، أمّا تصميمات النسق المفرد فتتحاشى هذه المشكلة الأخلاقية حيث يقوم نسق العميل بدور العينة الضابطة والعينة التجريبية مما يجعلها ملائمة لطبيعة المهنة وفلسفتها.

الانتقادات المُوَجَّهة لتصميمات النسق المفرد

على الرغم من كل ماذُكِرَ من سمات تُميز تصميمات النسق المفرد عن غيرها من التصميمات التقليدية وملاءمتها لطبيعة الخدمة الاجتماعية، يبقى هناك العديد من الانتقادات التي وُجِّهَتْ لها، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

1 - عدم قابليتها للتعميم: بما أن تصميمات النسق المفرد تُطَبَّق غالباً على أعداد قليلة من الأفراد، فإن النتائج المُتوَصَّل إليها باستخدام هذه التصميمات لايمكن تعميمها بالدرجة نفسها التي تُعَمَّمُ بها نتائج الدراسات التي تَستخدِم أعداداً أكثر من الأفراد، فحتى يمكن تعميم نتائج الدراسات التي جرى استخدام تصميمات النسق المفرد فيها يجب إعادة إجرائها مع عملاء آخرين، وعن طريق

ممارسين مهنيين آخرين، وفي مؤسسات أخرى حتى يكون لها مصداقية أكثر (Thomas, 1983: 605; Levy, 1983: 584; Fischer, 1981: 202; Grinnell & Williams, 1990: 254).

2 - **تَعَذُّر القياس لبعض الحالات**: قد تتطلب المقاييس التي يستخدمها الأخصائي الاجتماعي مع تصميمات النسق المفرد أن يقوم العميل بنفسه بتعبئة المقياس المستخدم مما قد قد يَحدُّ من استخدامها مع فئات كثيرة من العملاء، ومثال على ذلك: (1) الأطفال الذين لايستطيعون القراءة والكتابة، والذين لاتمكِّنُهم قدراتهم العقلية، لصغر سنهم، من تقويم المشكلة التي يعانون منها، (2) الأميون من البالغين، (3) كبار السن الذين لايستطيعون التركيز بما فيه الكفاية لتعبئة المقياس المستخدم، (4) المعاقون الذين تمنعهم إعاقتهم من الكتابة، (5) المتخلفون عقلياً، إلا أنه بإمكان الأخصائي الاجتماعي الذي يتعامل مع الحالات أنفة الذكر أن يتحاشى استخدام المقاييس التي تتطلب استجابة العميل، ويستعيض عن ذلك بمقاييس أخرى يقوم الأخصائي الاجتماعي نفسه بتعبئتها أو ملاحظتها، وحتى تخلو المقاييس التي يستخدمها الأخصائي الاجتماعي من التحيز، بقدر الإمكان، يُستحسن أن يستعين بأخصائيين اجتماعيين آخرين لمراقبة وتسجيل السلوك المراد قياسه (Denzin, 1989: 134).

3 - **استهلاكها للجهد والوقت**: لقد انتقد الكثيرون تصميمات النسق المفرد لكونها تتطلب الكثير من الوقت والجهد للقيام بها، وتتضح مصداقية مثل هذا الانتقاد في الدول العربية بوجه خاص، حيث تمارس الخدمة الاجتماعية بصفة شبه كاملة في مؤسسات حكومية، وغالباً ما تعاني هذه المؤسسات، بالإضافة إلى أشياء أخرى، من قلة عدد الأخصائيين الاجتماعيين وكثرة العملاء والمستفيدين من الخدمات الاجتماعية، ومن هذا المنطلق فإن استخدام تصميمات النسق المفرد قد يكون أمراً غير عملي.

إلا أن مثل هذا الأمر يطرح سؤالاً غاية في الأهمية، وهو «هل تهدف الخدمة الاجتماعية إلى تقديم خدمات كمية أم كيفية؟» فإذا كانت الإجابة عن السؤال أن الخدمة الاجتماعية تهدف إلى تقديم خدمات كمية أي خدمة أكبر عدد ممكن من العملاء بغض النظر عن نوعية الخدمة وفعاليتها، فإن ذلك سوف يؤدي إلى تقديم خدمات اجتماعية دون المستوى المطلوب لعملاء الخدمة الاجتماعية،

أما إذا كانت الإجابة أن الهدف هو تقديم خدمات كيفية تهتم بنوعية الخدمة وفعاليتها، فإن ذلك لن يأتي بدون صرف الوقت والجهد، وزيادة عدد الأخصائيين الاجتماعيين في المؤسسات الاجتماعية.

4 - تَقَيُّدها بالمدرسة السلوكية: يسود الاعتقاد بأن طبيعة تصميمات النسق المفرد تتطلب بالضرورة أن تكون المشكلة المراد حلها قابلة للقياس، أو أن يكون السلوك المراد تغييره أو تعديله ظاهراً بحيث يمكن قياسه، لذا فقد انتُقدت تصميمات النسق المفرد لكونها مرتبطة بالمدرسة السلوكية، والتي يؤمن أنصارها بالمقولة المشهورة «إذا لم تستطع ملاحظة المشكلة، فلن تستطيع قياسها، وإذا لم تستطع قياس المشكلة، فلن تستطيع حَلّها»، لذا فإن استخدام تصميمات النسق المفرد سوف يَحُدُّ من قدرة الممارس المهني في اللجوء إلى أُطُرٍ نظرية غير المدرسة السلوكية، ومن هذا المنطلق فإن تصميمات النسق المفرد ليست بطريقة مُثْلَى لبناء المعرفة في الخدمة الاجتماعية، وإن قيمة هذه التصميمات تتضاءل مقارنة بمنهج دراسة الحالة (Ruckdeschel & Farris, 1981: 414). إلا أن هذا الانتقاد ليس له أساس من الصحة، ويُمثِّل تحيزاً لا مسوِّغ له ضد تصميمات النسق المفرد. فتصميمات النسق المفرد منهج بحث، والمنهج لا يتيح لنظريةٍ أو اتجاهٍ نظريٍّ بذاته، بل هو مستقل، ومن الممكن توظيفه للإجابة عن تساؤلات بحثية أو لإثبات فرضيات لاتَمُتُّ للمدرسة السلوكية بِصِلَة (Hayes, 1981: 194). وجدير بالذكر أنه لاتوجد دراسة علمية واحدة تُثْبِتُ بما لا يدع مجالاً للشك أن تصميمات النسق المفرد لاتُناسِب أي نموذج نظري للممارسة في الخدمة الاجتماعية، بل على العكس، فالذين تَخَلَّوا عن تحيزهم أو حذرهم وحاولوا إثبات ملاءمة تصميمات النسق المفرد مع نماذج ممارسة غير المدرسة السلوكية نجحوا في ذلك (Dean & Reinherz, 1986: 71).

كما أن الاعتقاد بأن تصميمات النسق المفرد لاتُمكِّن الأخصائي من التعامل إلا مع المشكلات التي يمكن ملاحظتها فقط، أو لا تمكِّنه من التعامل مع العمليات العقلية والأحاسيس مثل الخوف والقلق، قد تَعَرَّض للانتقاد، فلقد ثبت أن مثل هذه العمليات العقلية والأحاسيس يمكن ملاحظتها عن طريق سلوك ظاهر يَدُلُّ عليها (مثل فرقعة الأصابع وعض الشفتين دليلاً على القلق) (Polster & Lynch, 1985: 383).

تعليق

لاتزال تصميمات النسق المفرد تشغل بال الكثيرين في حقل الخدمة الاجتماعية، فهي كانت ولاتزال تحظى بكتابات وافرة في المراجع العلمية، كما أن تطبيقها واستخدامها في مجالات ممارسة الخدمة الاجتماعية في ازدياد مستمر، والمهتمون بهذه التصميمات ينقسمون إلى فئتين: الفئة الأولى مؤيِّدة تماماً لها، وترى أنها تمثل الأمل بالنسبة للخدمة الاجتماعية، وأن وصول الخدمة الاجتماعية إلى ممارسة فعّالة مُثبتة ميدانياً سوف لا يتم إلا عن طريق التطبيق المستمر لتصميمات النسق المفرد، والفئة الثانية معارضة لهذه التصميمات وترى أنها سوف تقود المهنة إلى التدهور عبر الوقت، وذلك لأنها تمثل لهم عملية انسياق لامُسَوّغ له خلف الإجراءات التي لن تُقَدِّم ولن تُؤخِّر في مدى فعالية الخدمة الاجتماعية مع عملائها (Gordon, 1983: 182).

ويبدو أن كلتا الفئتين مبالغة في حكمها، فتصميمات النسق المفرد لاتُمثِّل ثورة علمية في الخدمة الاجتماعية كما ذهب إليه فيشر (Fischer,1981: 200)، كما أنها ليست دعوة لتقويض المهنة أو انسياقاً لامسوغ له خلف الإجراءات، فهي كما وَضَّحنا سابقاً فيها العديد من جوانب القوة، وكذلك العديد من جوانب الضعف والقصور، كما أن استخدامها يتلاءم مع فئة أخرى من العملاء أومع نوعية أخرى من المشكلات.

وعلى الرغم من أن الأخصائيين الاجتماعيين دائماً مُطالَبُون باستخدام نماذج ممارَسةٍ فعالة وذات مصداقية عالية ومُثْبَتة ميدانياً عن طريق الممارسة الفعلية لها، فإن مثل هذه النماذج لم توجد بعد في الخدمة الاجتماعية، وذلك يعود إلى العديد من الأسباب التي لها علاقة وثيقة بطبيعة المهنة ذاتها، فالحدود التي تُمارَسُ من خلالها المهنة ليست معروفة، فهي تُمارَس تقريبا في كل مجال يحتاج فيه الإنسان إلى مساعدة اجتماعية أو نفسية (Fischer, 1978: 218). يضاف إلى ذلك أنه لايوجد في الخدمة الاجتماعية إطار نظري مُوحَّد ينطلق منه جميع المنتمين إلى المهنة (Trader, 1977: 10). فهناك العديد من الأطر النظرية التي تستند إليها مهنة الخدمة الاجتماعية، والتي أتى إليها العديد من التخصصات وثيقة الصلة بها، وعلى الأخص علم النفس وعلم الاجتماع، وهذه الأُطُر النظرية ليست بالضرورة متناسقة فيما بينها، مما يجعل ممارسة المهنة عُرضةً للعديد من الاتجاهات، وذلك تبعاً لما

يُؤمن به الممارس المهني من تلك الأُطُر النظرية، لذا فإن تصميمات النسق المفرد لاتساعد على زيادة فعالية الممارسة، إذ تبقى فعالية الممارسة مرتبطةً بنوع التدخل المهني المستخدم، ويقتصر دور تصميمات النسق المفرد في هذا السياق على التأكد من فعالية الممارسة.

وتصميمات النسق المفرد ملائمة تماماً لمفهوم الممارس - الباحث في الخدمة الاجتماعية، وذلك لأن استخدامها يتطلب القيام بإجراءات بحثية بالإضافة إلى خطوات التدخل المهني (Howe, 1974: 3)، وخلافا لتصميمات البحث التقليدية، والتي تُقوِّم التدخل المهني بعد انتهائه، فإن تصميمات النسق المفرد توفر تغذية عكسية مستمرة للتدخل المهني مما يجعل قياس أثر التدخل المهني على المشكلة أو السلوك المراد تعديله أو تغييره ممكناً، وبالتالي من الممكن تغيير التدخل المهني، أو إجراء تحسينات فيه قبل الانتهاء منه تماماً (Polster & Lynch, 1985: 381).

وتُلائم تصميمات النسق المفرد طبيعة الخدمة الاجتماعية، حيث إنها تمكِّن الأخصائي الاجتماعي من التعامل مع كل حالة على حدة حسب طبيعة المشكلة التي يعاني منها العميل مما يؤدِّي إلى عدم إهدار للفروق الفردية بين العملاء، وبالإضافة إلى ذلك فإن استخدام هذه التصميمات سوف يُقلل من البحوث التي تُجرىٰ عن طريق الباحثين الذين يزورون المؤسسات لإجراء بحوثهم، حيث يضايق الباحث - الزائر عملاء الخدمة الاجتماعية، ويُولِّد عندهم الإحساس بأنهم أصبحوا حقل تجارب للباحثين، كما يعطيهم الإحساس بأن سرية مشكلاتهم مُهدَّدة مما يؤدِّي بالتالي إلى عدم تعاونهم بالشكل المطلوب مع الباحثين، وربما يكون ذلك الشعور أقوى لدى أفراد الدول النامية، وذلك لأنهم ربما لا يُقدِّرون الهدف من الأبحاث وقيمتها مقارنة بأفراد الدول المتقدمة، لذا فإن استخدام تصميمات النسق المفرد في الدول النامية قد يكون أعظم فائدة منه في الدول المتقدِّمة، حيث من المتوقَّع أن يتعاون العميل مع الممارس الباحث وتكون إجابته أكثر صدقاً وثباتاً. وفي الدول النامية لاتُعطَى الأبحاث القيمة نفسها المُعْطاة لها في الدول المتقدِّمة، وبالتالي فإن حجم الدعم المخصص لإجراء الأبحاث أقل بكثير من ذلك الموجود في الدول المتقدِّمة. ومن هذا المنطلق فإن استخدام تصميمات النسق المفرد سوف يُمكِّن المؤسسات الاجتماعية من إجراء أبحاث تقويمية لأدائها وبصفة دائمة كما سوف يُمكِّنها من أن تصبح أكثر فعالية مع عملائها بدون اللجوء إلى إجراء الأبحاث المكلفة.

وهناك العديد من العلماء في الخدمة الاجتماعية ممن يؤكّدون أن مقومات الممارسة «الإكلينيكية» في الخدمة الاجتماعية تتفق تماماً مع مقوّمات وخصائص تصميمات النسق المفرد، لذا يؤكدون ضرورة استخدامها وجعلها جزءاً من ممارسة الخدمة الاجتماعية «الإكلينيكية» حتى تكون أكثر فعالية مع العملاء (Bloom & Fischer, 1982: 7; Blythe & Briar, 1985: 487;Campbell, 1990: 13). ومع ذلك فإن تصميمات النسق المفرد، على حد علمي، ليس لها ذكر في المراجع العربية، كما أنها لاتُدَرَّس لطلاب الخدمة الاجتماعية في الوطن العربي ضمن طرق البحث أو ضمن طرق التدخل المهني، وحتى أكون عادلاً فإن تصميمات النسق المفرد لم تُعْطَ ما تستحقه من اهتمام حتى في الغرب، وذلك لعدة أسباب، كما ذهب إليه هيز (Hayes, 1981: 194)، وهي ما يلي:

أولاً: إنه لم يَجْرِ التفكير فيها جيداً، فتصميمات النسق المفرد تُدَرَّس في معاهد التدريب المتخصصة والجامعات من قبل غير المتخصصين، والذين تنقصهم الخبرة في ممارسة الخدمة الاجتماعية وطبيعتها، والذين يميلون إلى مناهج البحث التقليدية.

ثانياً: الطريقة التي تُدرَّس بها تصميمات النسق المفرد، وكذلك الكتابات عنها لم تكن أساساً موجهة إلى الممارس المهني، وإنما هي لإثبات أنها علمياً تُضاهي تصميمات البحث التقليدية التي تعتمد على المقارنة بين الجماعات، مما يجعل العيوب التي تعاني منها تصميمات النسق المفرد يُبالغ في تكبير حجمها، وبالتالي تُرفَضُ من قبل الممارس المهني الذي لا يستطيع التفريق بين المتطلبات الضرورية للممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية وبين العيوب المنهجية البسيطة، والتي تكون في الغالب نسبية مقارنة بتصميمات البحث التقليدية التي تعتمد على المقارنة بين الجماعات.

ثالثاً: بما أن تصميمات النسق المفرد طُوِّرَتْ أساسا عن طريق السلوكيين فإنها في الغالب تكون مرتبطة بالمدرسة السلوكية مما يجعلها تقابل بالرفض من قبل الممارسين المهنيين لهذا السبب، وهذا ما يدعو للأسف حقاً، حيث إن المنهج لايتبع ولايخضع لأي نظرية أو اتجاه نظري على الإطلاق، فمن الممكن استخدام تصميمات النسق المفرد للتحقق من أسئلة بحثية ليس لها علاقة بالمدرسة السلوكية.

رابعاً: عدم قدرة الممارسين المهنيين من الأخصائيين الاجتماعيين على التمييز بين تصميمات النسق المفرد وبين المنهج التقليدي القائم على المقارنة بين الجماعتين. فالأخير فقط يرمز للبحث أما تصميمات النسق المفرد فلا ينظر إليها على أنها طريقة بحث حقيقية.

خامسا: إن البحوث التي تعتمد على تصميمات النسق المفرد منهجاً لها تشقُّ طريقها بصعوبة بالغة إلى الدوريات وأوعية النشر العلمية، وذلك بسبب جهل المُحَكِّمين في تلك الدوريات بطبيعة الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية ومتطلباتها الحقيقية.

سادساً: إن معظم المؤسسات الاجتماعية مُتَحَفِّظة تجاه الدراسات العلمية وبخاصة تلك التي تأخذ طابع التقويم، وكون تصميمات النسق المفرد تهدف أساساً إلى تقويم التدخل المهني ومدى فعاليته مع العميل المستفيد من الخدمات الاجتماعية فإنها ليست محل ترحيب من قبل المؤسسات الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن آراء هيز (Hayes, 1981: 194) تمثل في نظري الواقع في الغرب بصورة عامة، فإنها لاتخلو من بعض المغالطات، فعلى سبيل المثال وَجَدَ برايز وبليث (Briar & Blythe, 1985: 484) أن المؤسسات الاجتماعية تُرحِّب بتصميمات النسق المفرد، وكلُّ ما من شأنه أن يُقوِّم تدخلها المهني والخدمات التي تقدمها للعملاء مادام أن الهدف هو تحسين الأداء وزيادة الفعالية.

وفي رأيي، فإنه لايوجد ما يمنع من نقل تصميمات النسق المفرد، على أنها تجربة أمريكية، إلى العالم العربي، ومحاولة تطبيقها بهدف سَدّ الفجوة بين الباحثين والممارسين من ناحية، واستخدام منهجية لتقويم التدخل المهني تتناسب مع طبيعة الخدمة الاجتماعية من ناحية أخرى.

المصادر العربية

محمود حسن محمد

1983 ممارسة خدمة الفرد. بيروت: دار النهضة العربية.

المصادر الأجنبية

Barth, R.P.

1981 "Education for Practice_Research: Toward a Reorientation" Journal of Education for Social Work 17 (January): 19-25.

Bloom, M. & Fiischer, J
1982 Evaluating Practice: Guidelines for the accountable professional. Englewood Cliffs, NJ: Practice Hall, Inc.
Blythe, B. J. & Briar, S.
1985 "Developing Empirically Based Models of Practice" Social Work 30 (June): 483-488
Briar, S.
1979 "Foreword", pp ix- xi in S. Jayaratne & R. Levy Empirical Clinical Practice. New York: Columbia University Press.
Briar, S. & Blythe, B. J
1985 "Agency Support for Evaluating the Outcomes of Social Work services" Administration in Social work 9 (February): 25- 36.
Campbell, D. T. & Stanley, J.C.
1963 Experimental and Quasi-Experimental Designs for Research. Chicago: Rand McNally.
Campbell, J.A.
1990 "Ability of Practitioners to Estimate Client Acceptance of Single-Subject Evaluation Procedures" Social Work 35 (January): 9- 14.
Cowger, C. & Kagel, J.
1980 "Social Work Research: What's the Use?", pp 82 -89 in K. Dea (Ed.) Perceptives for the Future. NASW, Washington, D.C.
Cross, D.G.
1984 "Single-Case Design: The Neglected Alternative for the Evalation of Family Therapy" Australion Journal of Family Therapy 5 (April): 275 279.
Dean, R.G. & Reinherz, H.
1986 "Psychodynamic Practice and Single System Design: The Odd Couple" Journal of Social Work Education 22 (February): 71 -81.
Denzin, N.K.
1989 The Research Act. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
Fischer, J.
1973 "Is Case-Work Effective? A Review" Social Work 18 (January): 5- 20.
———
1978 "Does Anything Work?" Journal of Social Service Reserach 1 (March): 215 - 243.
———
1981 "The Social Work Revolution" Social work 26 (May): 199 -207.
Gambrill, E. & Barth, R.
1980 "Single-Case Study Designs Revisited" Social Work Research and Abstracts 16 (March): 15 -29.

Gordon, W.E.
1983 "Social Work Revolution or Evolution?" Social Work 28 (May-June): 181- 185.
Grinnell, R. & Williams, M.
1990 Research in Social Work: A Primer. Itasca, IL: F.E. Peacock Publishers, Inc.
Hayes, S.C.
1981 "Single Case Experimental Design and Empirical Clinical Practice" Journal of Consulting and Clinical Psychology 49 (February) 193 - 211.
Howe, H.
1974 "Casework Self-Evaluation: A Single Subject Approach" Social Service Review 48 (January): 1 -23.
Hepworth, D. &Larson, J.
1990 Direct Social Work Practice. Belmont, CA: Wadsworth Publishing Company.
Kirk, S. & Rosenblatt, A.
1981 "Research Knowledge and Orientation", pp 123 -141 in S. Briar, H. Weissman & A. Rubin (Eds.) Research Utilization in Social Work Education. New York: Council of Social Work Education, Inc.
Levy, R.L.
1983 "Overview of Single-Case Experiment", pp 583 - 602 in A. Rosenblatt & D. Waldfogel (Eds.) Handbook of Clinical Social Work. San Francisco: Josey-Bass.

1987 "Single subject Research Designs" Encyclopedia of Social work Vol.2 (18th Edition) 588 - 593.
Nelson, J.C.
1981 "Issues in Single-subject Research for Nonbehaviorists" Social Work Research & Abstracts 17 (February): 31 - 37.

1984 "Intermediate Treatment Goals as Variables in Single-Case Research" Social Work Research and Abstracts 20 (March): 3 -10.

1985 "Verifying the Independent Variable in Single-Subject Research" Social Work Research and Abstracts 21 (February): 3 -8.
Polster, R.A. & Lynch, M.
1985 "Single Subject Designs", pp 381 - 422 in R.M. Grinnell (Ed.) Social Work Research and Evaluation. Itasca, IL: F.E. Peacock Publishers.
Rodway, M.
1986 "Systems Theory", pp 514 - 539 in F.J. Turner (Ed.) Social Work Treatment. New York: The Free Press.
Ruckdeschel, R.A. & Farris, B.E.
1981 "Assessing Practice: A Critical Look at the Single-Case Design" Social Casework 62 (September): 413 - 419.

Tawney, J.W. & Gast, D.L.
1984 Single Subject Research in Special Education. Columbus: Charles E. Merrill Publishing Company.

Thomas, E.J.
1978 "Research and Service in Single-Case Experimentation: Conflicts and Choices" Social work Research and Abstracts 14 (April): 20 - 31.

___
1983 "Problems and Issues in Single-Case Experiments:, pp 603 - 622 in A. Rosenblatt & D. Waldfogel (Eds.) Handbook of Clinical Social Work. San Francisco: Jossey-Bass.

Thyer, B.
1987 "Contingency Analysis: Toward a Unified Theory for Social Work Practice" Social Work 32 (March-April) 150 - 155.

Trader, H.P.
1977 "Survival Strategies for Oppressed Minorities" Social Work 22 (April): 10 - 13.

استلام البحث: أغسطس 1993

إجازة البحث: فبراير 1994

Single System Designs: Types and Utility in Social Work

Sami Abdulaziz Al - Damigh
King Saud University

The dependability of social work in the Arab world has been implicitly questioned. This is revealed in many forms, ranging from lack of appropriate recognition to social services being provided by non-professionals lacking the basics of the trade. Both social-work practitioners and educators are to be blamed for this status of the profession.

It is time Arab practitioners demonstrated effectiveness with clients, so that they would be considered dependable. Single system designs, almost ignored in Arab literature to date, can help social workers evaluate their intervention and improve its efficiency.

Single-system designs consist of a methodology and a practice model, at the same time. Their use can help make the profession more scientifically oriented. The article presents a critical review of single-system designs, their historic development, utility and limitations.